النظرية الشعرية في النقد العربي

(تحديد المصطلح والدلالــة)

عبد المنعم الوكيلي

إن أي دراسة من الدراسات أشبه ما تكون ببيت لا يتيسر الدخول إليه إلا من بابه، وباب أي دراسة هي مصطلحاتها، والمفاتيح الخفية لهذه المصطلحات هي دلالتها الدقيقة المحددة. وإذا أردنا الوصول إلى نتائج إيجابية في البحث العلمي لابد من تحديد فحوى الألفاظ والاصطلاحات، لأن التحديد الصحيح هو المنطلق الأول للتفكير العلمي.

لذا سنقف على توضيح مصطلح "الشعرية" في أفق تحديد معالم شعرية النص، وهذا ما أهدف إليه في هذه المحاولة من خلال نموذج يمثل درجة لا يستهان بها من النضج في هذا المجال، وأقصد بذلك الشعر العربي، وأتوسل في تحقيق ذلك إلى إبراز معالم القصيدة العربية بمختلف أسسها وتصوراتها، وما يرتبط بها من جمالية في الإبداع، والتلقي على السواء، لذا يعد الوقوف على مصطلح الشعرية مدخلا طبيعيا ومناسبا لهذه الدراسة.

فالمصطلح هو بنية معرفية وخلاصة الفكر "ووسيلة من وسائل التقدم العلمي والأدبي، وإذا أريد الوصول إلى نتائج إيجابية في البحث العلمي، لابد من تحديد الألفاظ والاصطلاحات، وبدون تحديد لا يمكن أن يتم تفاهم وتجاوب، ويستحيل تحقيق الأهداف المتوخاة" (1).

وهكذا، فإن دراسة هذه المفردات أضحت "من أوجب الواجبات وأسبقها وأؤكدها على كل باحث في أي فن من فنون التراث لا يقدم – ولا ينبغي أن يقدم- عليها تاريخ ولا مقارنة، ولا حكم عام ولا موازنة لأنها الخطوة الأولى للفهم السليم الذي عليه ينبني التقويم السليم والتاريخ السليم" (2).

لقد غدت لفظة "شعرية" كثيرة الاستعمال ومتداولة بين الباحثين والدارسين في مختلف العلوم، سواء أتم استعمالها في دلالتها الاصطلاحية المناسبة، أم استعملت استعمالا عاديا. غير أن شيوع الاستعمال لا يعني أنها واضحة الدلالة دقيقة عند جميع الباحثين، لذلك كان لابد من هذه الوقفة لتسليط الضوء على دلالتها، وإبراز مفهومها حتى نكون على بينة من أمرنا، لأن تحديد المصطلح منطلق

منهجي وأساسي في البحث العلمي الرزين، ولذلك كان ضرورة من ضرورات البحث عامة، ولاسيما حين يتعلق الأمر بمجموعة من المصطلحات الرصينة مثل مصطلح "شعرية".

وهكذا يوحي حديث الدكتورة إلفت الروبي بأن نظرية الشعر جزء من نظرية الأدب وفرع منها، "فإذا ما أردنا البحث عن نظرية أدبية "تجعل مادتها الشعر" في تراثنا العربي، فإننا نجدها عند الفلاسفة المسلمين لأنهم لم يشتغلوا مثل النقاد بتفسير النصوص الأدبية والحكم عليها وإنما ركزوا جهودهم في تحديد مفاهيمهم وتصوراتهم النظرية للشعر وغاياته وأشكاله بل توجهت طموحاتهم إلى محاولة استخلاص القوانين الكلية للشعر (مطلقا) التي تشترك فيها جميع الأمم عل اختلافها"(3).

إن نظرية الشعر تبحث في أصول الشعرية وقواعدها ومعاييرها والأسس الفنية والجمالية فيها، كما هو الشأن في نظرية الأدب، فإن نظرية الشعر أيضا تتضمن نسقا فكريا منظما يلم بالأصول الكلية والقوانين العامة في إطار نظري شامل، ذلك أن نظرية الشعر تهتم بالموضوعات نفسها أيضا، ولكن من حيث طبيعتها الشعرية الخاصة، لا من حيث طبيعتها الأدبية العامة، وبذلك نستطيع أن نقول إن نظرية الشعر جزء من نظرية النقد وكلاهما جزء من نظرية الأدب التي تعد أكثر اتساعا وشمولا، كما أن التنظير قد يكون مستقلا منفصلا عن التطبيق، وإن كان يستفيد من نتائجه وخلاصاته، كما يمكن أن يلتقي التنظير والتطبيق التقاء تكامل.

إن البحث في نظرية الشعر من منظور النقد العربي سبيل إلى تحديد معالم الشعرية العربية انطلاقا من كون الشعرية في منظور الدراسات المعاصرة علما موضوعه الشعر، في حين يعد مفهوم الشعر مدخلا طبيعيا ومناسبا لذلك، وهذا الأمر يتطلب من الباحث استحضار مفهوم الشعر والكشف عن الأسس والمقومات التي تحقق شعرية هذا الفن، علما أن الشعر له غاية ومميزات تميزه عن غيره من أشكال الخطاب الأدبي.

وتتعدد في الاصطلاح تعريفات الشعر بتعدد المذاهب والمدارس الفكرية والفنية والنقدية منذ أقدم الأزمان إلى الآن، وقد عرفه العرب وارتبط عندهم بالحياة البدوية وكان ديوان أيامهم وسجل تاريخهم وعلمهم الذي يفاخرون به، قال ابن سلام الجمحي: "وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون وإليه يصيرون" (4). وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مكان آخر "كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه"(5).

لذلك عنوا به عناية فائقة، واتخذه الشعراء والنقاد موضوع إبداعهم ومدار أبحاثهم. ومن الناحية التاريخية يعد قدامة بن جعفر أول الذين وضعوا كتابا في نقد الشعر بالمفهوم العلمي المحدد

لمصطلح "نقد"، ويتجلى مفهوم الشعر لدى قدامة من خلال تعريفه: " قول موزون مقفى يدل على معنى"(6). وهو التعريف الذي ظل سائدا في الشرق والمغرب الإسلامي حتى قدوم حازم القرطاجني الذي أضاف إلى عناصر الشعر الشكلية: "وزن، قافية، لفظ، معنى" عناصر جوهرية وهي المحاكاة والتخييل، ورأى أن للشعر وظيفة وهي إحداث التعجيب والاستغراب لدى المتلقي، يقول حازم: "الشعر كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكره إليها ما قصد تكريهه لتحمل بذلك عل طلبه أو الهرب منه، بما يتضمن من حسن تخييل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها، أو متصورة بحسن هيأة تأليف الكـــلام، أو قـــوة شهرتـــــه أو بمجموع ذلك، وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب، فإن الاستغراب والتعجيب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها وتأثرها"(7).

أولا: المعنى اللغوي والاصطلاحي

يرجع أصل مادة "شعر" في اللغة إلى قولهم:(شعر به وشعر يشعر شعرا.. وليت شعري أي ليت علمي أو ليتني علمت، وليت شعري من ذلك أي ليتني شعرت وقال سيبويه:

يا ليت شعري عنكم حنيفا وقد جدعنا منكم الأنوفـــــــا

وفي الحديث، ليت شعري ما صنع فلان: أي ليت علمي حاضر أو محيط بما صنع، فحذف الخبر، وهو كثير في كلامهم.

والشعر: منظوم القول، غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية.

والشعر، القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها، والجمع أشعار، وقائله شاعر لأنه يشعر مالا يشعر غيره أي يعلم، وشعر أجاد الشعر، ورجل شاعر، والجمع شعراء، ويقال شعرت لفلان أي قلت له شعرا، وقال سيبويه:

شعرت لكم لما تبينت فضلكم على غيركم، ما سائر الناس يشعر(8)

أما لفظة «شعرية» بهذه الصيغة وجمعها «شعريات»، فهي صيغة المصدر الصناعي، وهو اسم يدل على "المعنى" لا على "الذات"، ويصاغ بإضافة ياء النسبة والتاء القصيرة إلى المصدر من فعل "شعر" كما يلي: شعر + ي + ة = شعرية.

و"الشعرية" قديمة، فقد تناولها الفلاسفة والنقاد ووردت في بعض أقوالهم، فمن ذلك قول الفارابي "ت206 هـــ": "إن الأقاويل الشعرية إما أن تتنوع بأوزانها، وإما أن تتنوع بمعانيها..."(9).

ويقول ابن سينا "ت428 هـــ":...وانبعثت الشعرية منهم بحسب غريزة كل واحد منهم وقريحته في خاصته وبحسب خلقه وعادته"(10). وينقل ابن رشد "ت 520 هـــ" قول أرسطو:" وكثيرا ما يوجد في الأقاويل التي تسمى أشعارا، ماليس فيها من معنى الشعرية إلا الوزن فقط:"(11).

وتطلق "الشعرية" في الاصطلاح على كل عملية إبداعية، تتصف بمواصفات خاصة، تسمو بالنص الأدبي أو العمل الإبداعي إلى درجة من الرقي، والتأثير، والفاعلية، والاستغراب والتعجيب، والهزاز والاطراب... لذا فرق النقاد والأدباء في مجال الشعر بين ما يمكن أن تتحقق فيه الشاعرية بكل عناصرها ومقوماتها ومواصفاتها، وما ليس شعرا، وإن كان كلاما موزونا مقفى، لأن هذه العناصر وإن كانت ضرورية في الشعر، فإن هذا الجنس الأدبي لايرقى إلى درجة الإبداع لغياب الشعرية فيه، وخير من تمثل هذه الفكرة حازم القرطاجني الذي أقام منهجه في تحديد الشعر على ثلاث عناصر:

1 ـــ حسب بنيته ومكوناته.

2 ـــ حسب تأثيره وفاعليته أو وظيفته.

3 ـــ حسب أغراضه وعلاقته بأجناس أدبية أخرى وفي مقدمتها الخطابة.

وتمثل هذه المستويات الثلاث النظرية الحازمية التي حاولت أن تسترجع للشعر شعريته، وترفض كل تطاول على هذا الجنس وإن امتلك من يطرق باب هذا الجنس الأدوات اللازمة، ولنتأمل قول حازم وهو يمثل المتعاطي للأدب والمتطاول على قرض الشعر بالأعمى الذي يوهم نفسه برؤية الشيء "وإن مثله في ذلك مثل أعمى أنس قوما يلقطون، درا في موضع تشبه حصباؤه الدر في المقدار والهيأة والملمس فوقع بيده بعض ما يلقطون من ذلك فأدرك هيأته ومقداره وملمسه بحاسة لمسه، فجعل يعني نفسه في لقط الحصباء على أنها در، ولم يدر أن ميزة الجوهر وشرفه إنما هو بصفة أخرى غير التي أدرك وكذلك ظن هذا أن الشعرية في الشعر إنما هي نظم أي لفظ اتفق كيف اتفق نظمه، وتضمينه أي غرض اتفق على أي صفة اتفق، لايعتبر عنده في ذلك قانون ولا رسم موضوع، وإنما المعتبر عنده إجراء الكلام على الوزن والنفاذ به إلى قافية فلا يزيد بما يصنعه من ذلك على أن يبدي من عواره، ويعرب عن قبح مذاهبه في الكلام وسوء اختياره..."(12).

وعن تمثل حازم لمفهوم الشعرية يقول أحد الدارسين: "ويمكن القول إن حازما كان المرجعية الأكيدة للشعريات الحديثة، بل يمكن القول إن لمحة خاطفة من معنى الشعرية الحديثة كان متضمنا في النص النقدي لحازم القرطاجني، مع الإشارة أن لفظة "شعرية" في نصوصه كانت متأرجحة في اتخاذ

معنى الشعرية العام نظرا لاقتباسه من نصوص فلاسفة مختلفين، فضلا على أنه كان يعالج الشعر لا الخطاب الأدبي"(13).

فالشعرية ـــ إذا ـــ علم موضوعه الشعر، وكلمة شعر تعني جنسا أدبيا، أي القصيدة التي تتميز باستعمال النظم، وهكذا فكلمة "شعر" تفيد الإحساس الجمالي الخاص الناتج عادة عن القصيدة، وعندئذ يكون من الشائع الحديث عن (العاطفة أو الانفعال الشعري)(14).

فالإدراك الشاعري للعالم يأتي بسبب عملية انفعال الذات الشاعرة، تجاه العالم الخارجي، بمعنى أن الأحداث والظواهر، تضبط في هذا النسق الخاص، ثم إننا حين نقول عن هذه المعرفة: إنها انفعالية فإننا نعني أيضا، أنها "رؤياوية" ومن هنا تكتسب هذه المعرفة شروطا وقواعد مغايرة لما هو مألوف، وتكتسب هذه المعرفة قواعدها من خلال الإدراك الشاعري للعالم، وموضوع هذه المعرفة هو الشعر بلا شك، ولكن الانسان الذي ينتجها ويبدعها هو إنسان منفعل قبل كل شيء، فمـــع الانفعال الخلاق تذوب ذات الشاعر في الأشياء، وتتوحد مع العالم الخارجي، وبفعل الذوبان والتوحد يكتسب الإنسان إدراكا شاعريا.

فالقول الشعري هو قول ينهض في الحقل الثقافي الشعري، وفي هذا الحقل يصاغ القول ويتميز في جنس هو الشعر، وهكذا أصبحنا نقول: قول شعري، ويقول البعض: خطاب شعري، وهذا يعني أن الشعر هو قول يصير شعريا، أي يتميز بمفاهيمه الشعرية دون أن يعادل القول الشعري هذه المفاهيم، بل هو ينهض ويصير بها شعريا، وهذا "ما أتاح للنقد أن يكون بحثه في الشعر هو بحث في شعريته، أي في هذا الذي يجعل من قول ما قـــولا شعريا"(15).

ثانيا: مفهوم الشعرية

الشعرية مصطلح قديم حديث في الوقت ذاته، ويعود أصل المصطلح في أول انبثاقه إلى أرسطو، أما المفهوم" فقد تنوع بالمصطلح ذاته على الرغم من أنه ينحصر في إطار فكرة عامة تتلخص في البحث عن القوانين العلمية التي تحكم الإبداع "(16).

إن الشعرية بخلاف تأويل الأعمال النوعية، لا تسعى إلى تسمية المعنى، بل إلى معرفة القوانين العامة التي تنظم ولادة كل عمل، فالشعرية، إذاً، مقاربة للأدب مجردة وباطنية في الآن نفسه، وبذلك تستطيع الشعرية أن تجد في كل علم من هذه العلوم عونا كبيرا مادامت اللغة جزءا من موضوعاتها.

وستكون العلوم الأخرى التي تعالج الخطاب أقرب أقربائها علما، وأن "جماع ذلك يكون حقل البلاغة في معناها الأوسع كعلم عام للخطابات"(17). إذ إن الشعرية والاتجاهات الأدبية المجاورة تؤكد

بطريقة ملموسة أن الكلمة توفر لنفسها قانونها الخاص، ففحوى مفهوم الشعر غير ثابت وهو يتغير مع الزمن، إلا أن الوظيفة الشعرية أي الشاعرية "poéticité" هي كما أكد الشكلانيون عنصر فريد لا يمكن اختزاله بشكل ميكانيكي إلى عناصر أخرى.

وبصفة عامة، فإن الشاعرية هي مجرد مكون من بنية مركبة، إلا أنها مكـــون يحول بالضرورة العناصر الأخرى ويحدد معها سلوك المجموع، فإذا ظهرت الشاعرية أي وظيفة شعرية بلغت في أهميتها درجة الهيمنة في أثر أدبي، فإننا سنتحدث حينئذ عن شعر.

ولكن كيف تتجلى الشاعرية؟ إنها تتجلى في كون الكلمة تدرك بوصفها كلمة وليست مجرد بديل عن الشيء المسمى ولا كانبثاق للانفعال، وتتجلى في كون الكلمات وتركيبها ودلالتها وشكلها الخارجي والداخلي ليست مجرد أمارات مختلفة عن الواقع، بل لها وزنها الخاص وقيمتها الخاصة، ويؤكد رومان ياكبسون على أن "كل بحث في مجال الشعرية يفترض معرفة أولية بالدراسة العلمية للغة ذلك لأن الشعر فن لفظي، إذن فهو يستلزم قبل كل شيء استعمالا خاصـــا للغـــة"(18)

إن هذا الرأي يتجه بنا إلى ما ركز عليه رومان ياكبسون في مجال دراسته للغة، وهي الوظيفة الشعرية داخل الخطاب الشعري، الذي يختلف عما هو متداول في لغة الخطاب اليومي، مما يؤدي بالشاعر إلى اكتساب أسلوب خاص يجعله يتميز في لغته سواء على مستوى بنيتها الشكلية أو على مستوى بنيتها الدلالية في علاقتها بمرجعيتها وسياقها الذي توجد ضمنه.

إن الكلمة الشعرية تستمد شعريتها، حسب غرابتها عن المتداول من اللغة، في الخطاب اليومي، وتحدد هذه الشعرية داخل بنية الكلمة من خلال التغيرات التي تعرفها بالمقارنة مع اللغة السائدة في الخطاب سواء في تغيراتها الصوتية، أو في تغيراتها الدلالية داخل القصيدة، كما "تعتبر الشعرية نتاج لتشكيل خاص يتعدى فيه المبدع/الشاعر، نطاق الإفهام والتفهيم إلى نطاق الإثارة والتأثير أو الانفعال بالشعر والتأثير بمعطياته"(19).

ويبقى التداخل حاضرا بين اللغة العادية وبين اللغة الشعرية، ذلك أن اللغة العادية لغة تستعمل بدورها المجاز والتورية، ولكن في حدود ما هو متداول ومتعارف بين الناس.

وعندما نقول لغة شعرية "langage poétique" فنحن بالضرورة أمام لغة فنية ترقى بمستوى القصيدة إلى مستوى الصورة/الرؤيا، وتنزل بها إلى مستوى الصورة النموذج أو الصورة/الوثيقة، مع العلم أن اللغة الفنية لا تقوم إلا على حساب اللغة العادية لتعيد بناءها على مستوى أعلى. ولعل هذا ما جعل حد الشعرية عند اللسانيين أو المتأثرين بهم يعطي للفظة قيمتها الخاصة بها، قبل النظر إلى محتواها

والبيئة المحيطة بها كونها علامة لغوية لها كيانها الخاص، ويبقى موضوع الشعرية، حسب هذا الفهم، سلوكا يطرح من أجل بناء نظرية داخلية للأدب.

إن الشعر من منظور الباحثين هو فن صناعة الكلام، ومناورة ذهنية بالكلام. والكلمة الشعرية طاقة مليئة بالحياة والحركة والإيقاع والإيحاء، تتجاوز العادي المألوف لتستبق الزمن المباشر بكثافتها الرؤيوية وأبعادها الجديدة إنها الكلمة/التوتر، الكلمة/المعاناة، الكلمة/التجربة، وإن لم تكن كذلك أصبحت مجردة من شعريتها.

إن وظيفة اللغة الشعرية تساعد الشاعر على نقل انفعالاته وأحاسيسه، وعواطفه ومواقفه...تجاه ذاته وتجاه الواقع إلى الآخرين، وذلك بالاعتماد على قوة التصوير والتمثيل، سواء تعلق الأمر بالتعبير عن موقف عاطفي أو اجتماعي أو سياسي أو عقدي...ولذلك تتعدد الألفاظ والصور والأساليب بتعدد المواقف والانفعالات، لذلك فمعيار الشعر في رأي حازم القرطاجني هو المحاكاة والتخييل، وكان من التصورات التي نشأت عن هذه العلاقة المتكاملة بين المحاكاة والوزن أي أن الكلام الموزون غير المحاكي لا يعد شعرا. يقول حازم:"الشعر كلام مخيل موزون مختص في لسان العرب بزيادة التقفية"(20).

في الأخير، يمكن التشديد على أن حازما يتحدث هنا عن المقومات التخييلية، الدلالية الحرفية والمجازية، والمقومات اللفظية والوزنية...الخ، وهذه الأمور تمثل مسعى الشعر بالنسبة للتراث العربي، إلا أن الغاية في النهاية هي تزيين الشيء أو تقبيحه ودفع المتلقي إلى الإقبال أو الهرب منه.

وبهذا يؤكد حازم على الدور التأثيري الذي يبعثه الشعر، وهو يجعل هذا التأثير ميزان الحكم على القول الشعري، بمعنى أن براعة الإبداع لا تتم إلا بنجاح التلقي والاندفاع إلى اتخاذ موقف وسلوك ما.

هوامش

1 ــ ادريس الناقوري: "المصطلح النقدي في نقد الشعر"، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، ص، ص: 9 ــ 10.

2 ــ الشاهد البوشيخي: "مصطلحات نقدية في كتاب "البيان والتبين" للجاحظ"، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة: 1، 1980، ص: 13.

3 ــ إلفت الروبي: "نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين"، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة: 1، 1973 ، ص: 7.

4 ــ ابن سلام الجمحي: "طبقات فحول الشعراء": شرح محمود محمد شاكر، دار المعارف بمصر، بدون طبعة، ص:24 .

5 ــ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

6 ــ قدامة بن جعفر: "نقد الشعر"، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، دون طبعة، ص: 64.

7 ــ حازم القرطاجني: "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة 3، 1986 ، ص:.71

8 ــ ابن منظور: "لسان العرب"، مادة "شعر"، دار صادر بيروت، الطبعة 1، 1990، وانظر كذلك "المعجم الوسيط، معجم مقاييس اللغة، تاج العروس، الصحاح": مادة "شعر".

9 ــ "رسالة الفرابي في قوانين صناعة الشعر ضمن فن الشعر لأرسطو"، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة بيروت، طبعة سنة 1973، ص ، ص: 150 ــ 152.

10ــ المصدر نفسه: 172.

11ــ المصدر نفسه: 204.

12 ــ حازم القرطاجني: "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"، مرجع سابق، ص، ص:27 ــ 28.

13 ــحسن ناظم:"مفاهيم الشعرية دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم"، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994، ص: 13.

14 ــجان كوهن: "بنية اللغة الشعرية"، ترجمة محمد الوالي/ محمد العمري، دار توبقال، الدار البيضاء، ط:1، 1986، ص: 9.

15 ــ يمني العيد: "في القول الشعري"، دار توبقال، الدار البيضاء، ط:1، 1987، ص:17.

16 ــ حسن ناظم: "مفاهيم الشعرية..." مرجع سابق، ص: 14.

17 ــ تزفيطان تودوروف: "الشعرية"، ترجمة شكري المبخوت ورجاءين سلامة، دار توبقال البيضاء، ط:1، 1987، ص، ص: 28 و 84.

18 ــ رومان ياكبسون: "قضايا الشعرية"، ترجمة محمد الوالي/مبارك حنون، دار توبقال، البيضاء، ط:1، 1988 ، ص: 77.

19 ــ قاسم المومني: "الشعرية في الشعر دراسة معاصرة في مادة قديمة"، مجلة :"فصول"، المجلد السابع العددان 3-4 السنة 1987، ص:.70

20 ــ حازم القرطاجني: "المنهاج"، مرجع سابق، ص ، ص: 90 و71.